سرد المرض بوصفه سرديات بديلة عبر كتاب عام السرطان لسالمة صالح

أ. د. إشراق سامي عبد النبي
مركز دراسات البصرة والخليج العربي/ جامعة البصرة
Email: Ishraq_dr@yahoo.com

الملخص

في هذا الكتاب أسلوب خاص لايعتمد على الأقوال المتكررة ولا الأفكار النمطية، بل هي تجربة معاشة بتفاصيلها دون الإغراق بالمشاعر والانفعالات الإنسانية عند الخوف والصدمات الكبرى، ولهذا أطلق البحث على سردية المرض هنا اسم سردية بديلة بمعنى المقاومة للفرضيات الكبرى أو الشائعة التي تهيمن على عقل الناس ولاسيما في مرض شرس وقاتل ورحلة علاجه طويلة ومؤلمة .

إنه وثيقة فردية وخاصة متعالية على ماهو قار ومكرور لأنها تتلمس طريق تجربتها الخاص بنفسها متحدية بالشكل والمضمون أفق توقع المتلقي .

هذا الكتاب هو سردية بديلة لفكرة المرض جاءت عبر تخلصه من هيمنة المجازات والثقل العاطفي الذي يرافق المريض والذي ينتقل له عبر تصورات عامة تجعل تحمله ذنباً خفياً في المرض بدلاً من أن تمنحه التفهم والمساندة .

الكلمات المفتاحية: سيرة ذاتية ، سرد المرض ، تجارب ذاتية ، سرديات بديلة.

Narrating Illness as an Alternative Narrative through Salma Saleh's The Year of Cancer

Prof .Dr. Ishraq Sami Abdul-Nabi

Basra and Arabian Gulf Studies Center / University of Basrah

Email: Ishraq_dr@yahoo.com

Abstract

In this book, writing about a frightening disease such as cancer took a special style that does not rely on repeated clichés or stereotypical ideas, but rather it is a lived experience in its details without being overwhelmed by human feelings and emotions during fear and major shocks.

This book is an alternative narrative to the idea of illness that came about by getting rid of the dominance of metaphors and the emotional weight that accompanies the patient and that is transmitted to him through general perceptions that make him bear a hidden guilt in the illness instead of giving him understanding and support.

Keywords: Autobiography, Illness Narrative, Personal Experiences , Alternative Narratives.

المقدمة

سالمة صالح كاتبة عراقية من مدينة الموصل، كتبت القصة والرواية والمسرحية وتميزت بنشاطها اليساري منذ السبيعينيات حتى مغادرتها للعراق برفقة زوجها فاضل العزاوي، وتقيم الان في المانيا، اخترت لها كتاب (عام السرطان) الذي دونت فيه تجربتها في المرض، ورحلتها مع العلاج، الكتاب متداخل إجناسيا وصعب التصنيف، إذ يمكن عده شكلا سيرياليا، فيما وضعته الكاتبة في خانة اسمتها (تجارب) بينما ارتأى الشاعر فاضل العزاوي تسميته "رواية "في كلمته على الغلاف.

ثم تطلق الكاتبة في نهاية هذا النص اسم تقرير موثق لاصابتها بمرض السرطان عام ٢٠١٣ .

تعد تجربة الكتابة عن الأمراض متواضعة جداً أو معدومة في الأدب العربي، أعني أن يكون الكتاب برمته قد خصص للحديث فقط عن المرض وأيام العلاج، أسماء الأدوية والوصف العلمي للأعراض، وهذا هو ما جعلني أضع كتاب عام السرطان في تصنيف :

(السرديات البديلة)، فهو محاولة لجعل الأدب قادراً على أن يكون بمحتوى علمي أو شديد الارتباط بالموضوعية كما هو الحال مع المرض، وهو بذلك إمكانية تعبيرية تندرج ضمن تيار أدبي وفكري يحاول أن ينظر إلى الحياة بمجملها وبمختلف ظواهرها ولاينغلق على ما هو معتاد في الكتابة الادبية .

اعتمدت في هذا البحث على فرضيتين كل منها جاءت بكتاب جعلت منه موجهاً للكتابة النقدية هنا:

الكتاب الأول: هو : (المرض كاستعارة لسوزان سونتياغ) وهو كتاب يدور حول مقارنة بين السرطان والسل من حيث المحمولات العاطفية المرتبطة بأذهان الناس حول كلا المرضين، وبينت عبر مفهوم الاستعارة طريقة تصور الناس لتلك الأمراض .

الكتاب الثاني : هو كتاب سرديات بديلة لمحمد الشحات وهو محاولة لفهم السرد عبر تصنيفه إلى سرديات أو مقولات كبرى تفرضها هيمنة ما، سياسية أو فكرية أو حتى شعبية وبين أخرى بديلة يمكن لها أن تصنع تجربة مغايرة عبر فهم خاص وهي بذلك _ أعني السردية البديلة _تسعى إلى نقض أقانيم السرديات الكبرى وزعزعة مركزيتها والتشكيك في أيديولوجيتها .

الفرضية التي اتبعتها في هذا البحث أن المرض بوصفه نصاً أدبياً يتجاوز فكرة الحضور السيري وفتح باب البوح والمشاركة الوجدانية، أنه موقف إنساني وأخلاقي من الحياة والذات، لذلك وجدت في هذه التجربة الأدبية والإنسانية ما يستحق الكتابة والحوار حوله .

فرضية

يفترض البحث إن هذا النوع من الكتابة (الكتابة السيرية) وكتابة تجربة محددة، هي سردية بديلة تتبنى فكرة مغايرة عن السرديات التي يطلق عليها بالسرديات الكبرى .

السرديات الكبرى حسب ليوتار هي أفكار شمولية تخلق معها نفي التجارب الفردية ويتبناها الصوت الرسمي الذي يكتب التاريخ وهي الوسيلة المثلى التي يمكن النظر اليها باعتبارها استراتيجيات تتكىء عليها الامم والشعوب والحضارات والثقافات وحتى الديانات والمذاهب في التكريس لهيمنتها .

تعتمد السرديات الكبرى في العادة على نوع من التبرير تتبناه المؤسسات في المجتمع لكن المجتمع ما بعد الحداثي لا يعتمد على أية حكاية تبريرية ، فما بعد الحداثة كما يذكر النقاد هي لحظة تنوير تنفي أي ادعاء.

أما السرديات هنا فهي لاتخص الكتابة الأدبية التي تعتمد الخيال فقط وإنما هي عالم متماسك، تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، وبالتالي السردية البديلة هي التي تسعى إلى تفكيك مقولات السرديات الكبرى وتقويض مركزيتها وزعزعتها عن طريق النصوص التي تصنع عالماً فنياً مقاوماً ويمتلك خيارات واضحة للتعبير عن ذاته وعن الاختلاف فيها .

يمكن عدّ كتاب (عام السرطان) سردية بديلة مناهضة لحقائق مطلقة سيطرت على سرديات المعرفة في مجال الامراض الخبيثة، لذا كانت الكتابة عن الإصابة بهذا المرض ورحلة العلاج بكل تفاصيلها الطبية مروراً بلحظات الالم حتى النجاة بشكل كامل منه، كانت هي طريقة لتفكيك أفكار أصبحت بمثابة بنى كلاسيكية معرفية ابتعدت عن الواقع المعاصر والسردية البديلة هي قدرة العقل على التخلق والتشكيل باستمرار وهذا ما تريده

(سرديات الحياة اليومية) التي لا تأخذ المقولات الشائعة بطريقة اليقين والاطمئنان وإنما تخلق لذاتها عبر تجاربها الخاصة ولغتها الواقعية فكرة أكثر إقناعا وأكثر تمثيلاً لمن يكتبها . من هذه النقطة وجدت في كتاب (عام السرطان) تحدياً لما اسمته الكاتبة الأمريكية سوزان سونتاغ في كتابها المرض بوصفه استعارة، التي أشارت فيه أن أفضل طريقة للتفكير بالأمراض هي في عدم اللجوء إلى الاستعارة لأنها تحبط عزيمة المرضى وتدفعهم نحو الصمت والخجل .

نبهت هذه الكاتبة إلى خطورة استعمال كلمات الحرب لوصف مرض مثل السرطان : خلايا قاتلة ، غزو الخلايا، معركة طاحنة ، مقاتل السرطان ، الانتصار ، الاستسلام . مشيرة أن المصاب بهذا المرض سيتغلب وينجو في حال أظهر وعياً للتخلي عن الاثار العاطفية للسرطان، في هذا الكتاب الذي جاء بعد تجربتها مع المرض وصلت إلى نتيجة وتوصية لكل من يمر بظرف صحي مشابه وهو تجنب التفكير المجازي والتركيز فقط على المكونات المادية والعلاج، وهذا ما

فعلته الكاتبة سالمة صالح التي لم تخضع في كتابة تجربتها لأية استعارات عاطفية أو فكرة شائعة وإنما حاولت تسجيل خطواتها في العلاج بالكثير من الروية والهدوء، على هذا الاساس يمكن النظر إلى هذا الكتاب على وفق هذا الافتراض .

ولإثبات هذه الفرضية حاول البحث النظر إلى الكتاب من خطين متوازيين: الأول هو الشكل والصياغة والثاني هو المضمون والفلسفة .

المبحث الأول

سردية بديلة في الشكل

سرد موضوعي

الرؤيا المحايدة

ونعني بها الطريقة التي ينتظم فيها سرد الكاتبة عن تجربتها المرضية، ففي السرد الموضوعي يكون الكاتب مطلعاً على كل شيء، حتى الافكار السرية للأبطال ويكون السرد الموضوعي قريباً من الواقع يحاول الوصف دون إيغال في ما يتركه الحدث من مشاعر ذاتية، ورغم إن المرض يعد من أكثر التجارب الذاتية مجالاً للبوح وللحديث عن النفس، الا إن الكاتبة تميزت بقدرتها على الانفصال نفسياُ عن الحدث متحدية تلك الحاجة في التوقف طويلاً عند الاحساس أو الاثر النفسي لما تترتب عليه تجربة مؤلمة مثل هذه.

وقد تمثلت الرؤيا المحايدة لديها بثلاث صور :

الأولى : لغة الوصف لا الانطباع

وهي لغة تتوخى وصف المشهد بطريقة خارجية دون أن تغور في النفس باحثة عن انعكاساته العاطفية، وكانها تتحدث عن صديقة أو جارة تفهم ما يجري لها فيزيائياً لكنها ليست على تماس حساس مع الصورة الذاتية المتولدة من المشهد بأكمله، ولأن كتاب (عام السرطان) صناعة أدبية مرجعية يعتمد على سيرة الكاتبة الحقيقية وقد وصفت هذه الكاتبة بأنها رواية سيرية : " تُشْبِه بِنية هذه السيرة الروائية سجادة مُتقنة الصنع لا تحتمل الخطأ في حياكة نسيجها، ورسم أشكالها المجسّمة بطريقة فنية مُبهِرة لا تُخطِئها العين الحصيفة. فعلى الرغم من ضراوة المرض الذي تعرّضت له الراوية إلاّ أنها حافظت على حبكة الرواية، وحرصت على إيقاعها الداخلي المُتوازن، والتزمت بلغة مشذّبة خالية من الزوائد والاستطرادات"[١] .

اذن تتصل هذه الكتابة بشكل ما بالسيرة الذاتية للكاتبة وهي تحمل على ذلك بعداً توثيقياً لتجربة خاصة جداً تمثلت بالمرض، فيما صيغت العلاقة بين هذه التجربة وبين اللغة صياغة حيادية حافظت على عدم انفعالها، ولم تسمح لأسطورة يخلقها شعور مركب بأن ثمة خطأ ما أدى إلى هذه الاصابة، وهي واحدة من الافكار الضمنية الجمعية التي تدور حول هذا المرض وتصيب المريض فيه بإحساس شبيه بالخزي يضاف إلى معاناته الصحية وهذا ما هو غير معتاد في مثل هذا النوع من الكتابة " فالسيرة تحفل ببعد يغلف باستراتيجية البوح ، إذ تكون المرأة منشغلة بالبوح عن ذاتها"(٢).

لم تكتس هذه الكتابة السيرية سمة البوح العاطفي، بل ابتعدت عنه وعبر لغة دقيقة لا تميل إلى الحشو أو الإنشاء ولا تبالغ في خلق أجواء عاطفية، حيث تقف الكتابة بالقرب من اللغة دون أن تتلبسها فهي تستعملها ببرود تام، فالكلمة غير مشحونة بانفعال معين ولا تحتمل تأويلات غير معناها القريب، وهي دقيقة في التعبير عن الحالة لا عن الإحساس، عبر رسم مشاهد تمثل الحالة تمثيلاً خارجياً تاركاً للقارى تقديره الخاص في منحه الدلالة الانفعالية التي يريد . فتقول على سبيل المثال :

"كانت العملية الصغيرة بحد ذاتها امراً بسيطاً، لكن ماحدث كان خارج هذه التوقعات، فقرر الطبيب الذي أجرى العملية استئصال بعض الغدد اللمفية لغرض فحصها لاحتمال انتشار الخلايا السرطانية فيها، لم أكن في هذا الوقت أعرف شيئاً عن الجهاز اللمفي، فالعلم المدرسي يقول شيئاً عن الهيكل العظمي والدورة الدموية والجهاز العصبي وجهاز الهضم ولكنه لم يقدم لنا فكرة عن هذا الجهاز الذي عرفت فيما بعد، أنه شبكة من الاوعية تنتشر تحت الجلد تشبه الاوعية الدموية وتقوم بتحليل السائل اللمفي الذي يشبه الدم في تركيبه لكنه لايحتوي على الكريات الحمراء وأنه ينتمي الى جهاز المناعة الذي يشمل نخاع العظم والطحال والغدة الصعترية وما لا ادري " (٣).

وتبدو رغبة الكاتبة في الشرح والتوضيح لمادة علمية طبية مؤكدة وهذا أحد أهم أشكال الكتابات التي تنتمي لما بعد الحداثة وهي احترام العلوم التطبيقية الصرفة وفسح المجال لها داخل النص الادبي يمنحها هو _الادب_ بعض الطراوة والسهولة اللازمة لفهم الناس، وتمنحه هي _ العلم _ الاقتراب كثيرا من الواقع الحياتي والدقة والفائدة .

"إننا نخلق اثناء محاولاتنا العثور على كلمات تمثل تجاربنا في واقع الامر انفسنا وعالمنا.(بالطبع تستجيب لغتنا المتطورة، بقدر ماهي لغة وصفية، لشكل الاشياء حولنا، غير
أن هنالك بعدا اخر للغة، هو البعد الذي يشكل تطورها من خلال عواطفنا وعلاقتنا ."(٤)

تتحقق السردية البديلة هنا عبر لغة واصفة قادرة على صنع علاقة خاصة بتجربة المرض تاركة لنفسها حق أن تخطو في طريقها بتمهل وفردية ومن ثم التعبير عنها باللغة تقول وهي تصف المكان دون رتوش عاطفية :

"منضدة صغيرة دوارة تسمح باستعمالات متعددة كمكان لوضع قدح الماء أو كمائدة للطعام أو الأدوات الصغيرة للعلاج جعل الجلوس عليه ساعات طويلة أثناء العلاج أمراً مطاقاً. في المرة ربط بأنبوب الدواء جهاز إنذار يطبق زعيقا عن توقف القطرات عن الهبوط وكانت تتوقف كلما حركت ذراعي .وقد ظل الجهاز يطلق إنذاره كل بضعة دقائق فتأتي الممرضة لإسكاته وتنظيم انسياب القطرات "[٥]

مراحل العلاج والأدوات والأماكن كلها توجد في هذا النص بلغة محايدة " ليست اللغة مجرد الكساء الخارجي للفكر، ولاهي أداة بسيطة يتوجب من حيث المبدأ أن تخضع خضوعاً تاماً لسيطرتنا .إنها اقرب ما تكون وسطاً نغطس فيه ولا نستطيع أن نختبره تماماً أنها ليست مجرد الوسيلة التي نستطيع بفضلها أن نصف العالم، ولكنها ما نصبح بفضله قادرين على تجريب العواطف الانسانية والدخول في علاقات بشرية على وجه الخصوص فيما بيننا"[٦]

ثانيا : المسافة بين الساردة والمؤلفة

ثمة اتفاق على إن الكتابة التي ينتمي لها كتاب (عام السرطان) هي كتابة سيرية إلى حد بعيد، وهذا النوع تم تحديد ضمير المتكلم فيه بأنه يحيل على تطابق المراحل الثلاثة : المؤلف السارد والشخصية، فالنص السير ذاتي هو نص مرجعي لكن " الأنا تعود إلى صورة متخيلة من طرف أنا مرجعية تكتب " [٧]

ويمكن أن نميز كثيراً أن الكاتبة تنزاح قليلا لتترك المجال للساردة كي تنسج عالماً من الوصف[٨]

"في الثلاثين من شهر يوليو /تموز عدت من العيادة بعد أن حصلت على لتر من الدم .تناولت طعام الغداء وشعرت بالنشاط بعد حمام ساخن، فقررت أن اذهب إلى السوق القريب وكنت على مبعدة أقل من مئة متر منه، خانتني قوتي، شعرت بضعف شديد فلم أستطع متابعة الطريق إلى السوق، الذي بدا لي قريباً وبعيداً في ان واحد ، فقررت العودة .صرت اقطع المسافة من شجرة إلى اخرى مسافة قد لا تزيد على الستة امتار، استند إلى الشجرة في استراحة قصيرة قبل ان اتابع السير لأستند الى الشجرة التالية .كنت أحمل تلفونا معي ، لكني
كنت أضعف من أن اتصل بسيارة إسعاف "[٩]

هناك سلسلة من الافعال دون توقف بينها للشرح او التبرير : عدت ...حصلت ...تناولت ...فقررت اذهب ...خانتني ...شعرت بضعف ...استند الى ... وهكذا تحافظ الكاتبة على خصوصية الإبلاغ عبر اللغة دون محاولة التأثير المباشرة او الواضحة .

تطرق الباحثان (جاك لوكارم واليان لوكارم) إلى أن الانسان في بحث دائم لتطوير قدرات الذاكرة على حفظ الاشياء من النسيان أولا ومواجهة الموت المتربص به ثانياً ، وبناء على هذه الفرضية اعتبرا اليوميات خطاباً عن الذات ، خاصيته المميزة انه حامل للذاكرة ومساعد لها في الصراع ضد النسيان "(١٠)

هذا الوعي في المسافة بين الذات والحدث الذي يمر عبر الذاكرة وتنقله اللغة يحتاج الى "قدر من الحيوية والاصالة يفوق الحد الاعتيادي، وهي تحتاج فضلا عن ذلك إلى دافع ملح يحثها على نقل رسالة او ابصار حقيقة ليس بالإمكان تركها تتلاشى، أو عدا ذلك إلى مقدار من الكبرياء تصل قوته حدا لا يدع للكاتب مجالا للشك في أن وجوده الخاص، بكل تفاصيله الحميمة والصغيرة، ينطوي على معنى كبير الأهمية للعالم على نطاق واسع "(١١)

تمثلت كبرياء الكاتبة وهي تأخذ موضوعاً خاصاً وبصفتها الحقيقية بقدرتها على الدخول في السرد بهدوء وحياد دون الوقوع في أسر لغة تبوح بذاتية أو عاطفية عالية تصف ذلك العام بقولها :

"عشت عاماً كاملاً في فراغ مطلق ، عام ٢٠١٣معفاة من الهموم اليومية والواجبات كنت مثل شخص يسير في نزهة طويلة لا تبغي الوصول إلى مكان محدد، بدأ مع بداية السنة وانتهى في الثامن والعشرين من كانون الاول .بعد ثلاثة أيام وحسب سيبدأ العام الجديد ، وسأكتشف ان كل ما كان قد توقف ولا يزال مستمرا: القتل المجاني الانفجارات ،الجشع الذي يكتسح كل ما يقف في طريقه والخوف وكفاح الملايين من البشر من اجل الاستمرار يوما اخر اسبوعا اخر وسنة أخرى"(١٢) .

تشكل التواريخ عادة نقاط حادة الدلالة في ذاكرة المرض لأنها تختزن بنسخة وعي سابقة للمرض أو مصاحبة له، تشير الكاتبة هنا إلى الفراغ النفسي الذي كان هاجساً لأيام العلاج، فراغ بعد أن أعفيت من روتينها المعتاد وواجباتها، وبعد النهاية _نهاية النزهة التي ليس لها هدف _ تكتشف الكاتبة أن الحياة لم تتوقف لكن إحساسها بتفاصيلها هو الذي توقف وانقطع خلال فترة العلاج وقد " يلتقي التحليل السيرة الذاتية مع التحليل النفسي في الرغبة في معرفة الذات إذ إن هذا المحكي الذي يكتبه الكاتب شبيه بمحكي العلاج " (١٣)

أذن تتولى الكتابة هنا وظيفة مضافة إلى التوثيق وتكريس الذاكرة هي وظيفة النظر إلى الذات عبر التجربة وتسجيل ما مرت به من انفعالات وشجون وفهم طريقة تفكيرها أثناء مرورها بمراحل العلاج والمرض تقول مسجلة إحساسها آنذاك :

"لم يثر الخبر لدي أي شعور بالخوف أو الحزن ولا أي سؤال عما يمكن أن يحدث في الايام القادمة ، لم أشعر بالصدمة ولذلك ربما لم انطق بكلمة خراء الاكثر استعمالا بالألمانية ، كان يمكن أن اصرخ بها واقول همساً ، بل ملأني شعور كبير بالفراغ في الوصول إلى نقطة انتظرتها أحد عشر يوما ، وفيما عدا ذلك شعرت بالراحة لأني سأستطيع في صباح اليوم التالي مغادرة المستشفى" (١٤).

حمّلت سالمة صالح كتابها مهمة النظر إلى الاشياء بطريقة مغايرة عبر مقاربة شكلية ووعي نقدي ولأن "دور الكاتب هو إعادة خلق الرؤيا أو حدس الحقيقة الذي يميز هذه الصدمات المستعادة، يمكن كما تعتقد فرجينيا وولف إعادة بناء حياة ، حياتها من مادة الذكريات " (١٥)

إذن ذاتية التجربة (بالمرض العضال) وذاتية الشكل الأدبي المختار لتمثيل (كتابة مرجعية/ سيرة ذاتية) لكن الكاتبة تعالت على الرضوخ لنمط معين من الإحساس والتفكير، نمط معتاد عن حلول صدمات كبرى في حياة البشر ولاسيما المرض، وكانت وسيلتها في الصوغ هي اللغة والمسافة ..لغة حيادية واصفة، ومسافة محسوبة الوعي بين الذات وما تفعل داخل اللحظة السردية .

المبحث الثاني/ سردية بديلة بالمعنى

الرؤية

لا يوجد كتابة حقيقية من غير رؤية ونقصد بها وجهة النظر التي استدعت تأليف الكتاب، وهي في كتاب (عام السرطان) السردية البديلة عبر تجاوز الفكرة الانفعالية المضخمة عن المرض والتي وصفتها سوزان سونتاغ بأنه أكثر مرض ترتبط استعاراته بالحرب والصراع القاتل الفتاك، وهي محاولة في العمق لنقض السرديات الكبرى ، وهي الافكار الثابتة التي تتبناها مجموعة كبيرة من الناس ، وقد تكون ايديولوجية أو فكرية ، ولكنها هنا في هذا الكتاب خصوصية التجربة الخاصة في المرض وفي اختيارها مادة للحديث عنها .

وقد تمثلت الرؤية في هذا الكتاب بمحورين أساسيين هما:

دحض فكرة ضعف المرأة في المرض

الثانية دحض فكرة الصورة المرعبة

كل سردية بديلة هي بالضرورة مقاومة او محاولة للوقوف بوجه أشكال الهيمنة عبر تجربة فردية، والفكرة المرتبطة بمرض مثل السرطان، تعد بطريقة ما هيمنة معرفية فكرية تسيطر على لاوعي جمعي انساني تراكمت خبراته في هذا المجال عبر مقاربات قديمة تجاوزها العلم الآن ..

أولا : ضعف المرأة

غالبا ما يرتبط المرض بوصفه أحد أهم التحديات التي تواجه الإنسان خاصة تلك الأمراض الصعبة والتي تحتاج إلى رحلة علاج طويلة ومؤلمة تبين مكامن الضعف الانساني، وسيبدو هذا الضعف بصورة علنية وغير محتاج إلى المواربة مع المرأة، هذا الاستنتاج مبني على فكرة ثقافية عميقة في المجتمع العربي، تجعل من الضعف بكل تجلياته مثلبة لفحولة الرجل، لكنها مقبولة عند المرأة وربما مطلوبة في أحيان كثيرة " لكن الكتابة وهي فعل مقاومة " والكتابة النسائية على الخصوص منذورة لأن تكون ضد الاخرين الذين هيمنوا على اللغة والهوية والمكان خلالها تحاول الذات الأنثوية أن تملأ هذه الخانات بلغة جديدة، ويتجلى ذلك من خلال السرد الأنثوي الذي يبوح نيابة عن الذات ، وتخلق المتكلمة في السيرة الذاتية خطابا مغلفا ببوح مكتوم"[١٦] .

تكسر الكاتبة أفق التوقع عبر قوة حقيقية تبرز بين حروفها دون ادعاء فهي تخاطب زوجها عند سماعه الخبر :

"في المساء اتصلت بفاضل وقلت له سأعود غدا الى المنزل. سأل عن نتائج الفحص فاخبرته أنه السرطان . سمعت صوته يتهدج وعرفت أنه يبكي، قلت له لا تبك فأنني لم أمت" [١٧]

يوضح هذا النص مدى الجلد الذي حملته هذه السيدة وهي تعرف نتيجة الفص لوحدها وبعد أن فهمت خطة العلاج ومواعيدها اتصلت بزوجها وربما كان السيناريو المعتاد هو إخباره بالموضوع مع الشكوى أو البكاء أو الهلع، لكن الوضع هنا مختلف إذ هي تحدثت عن موعد عودتها إلى المنزل وحين سألها هو عن نتيجة الفحص أجابته ببساطة ، ولو كان فاته السؤال لما أخبرته بأمر جلل كهذا ! وتشير الكاتبة في اكثر من موضع عن علاقتها بزوجها، وتبدو فيها مثل الأساس الذي يسند نفسه عليه دون أن يتحمل عبء تفاصيل الحياة التي اضطرت لأن تعلمه ما يحتاج اليه في حال غيابها .

الصورة هنا في هذه السردية الفردية مغايرة تماما لأفكار عامة ثابتة " السرد في هذا السياق الجديد هو تشكيل عالم متماسك متخيل، تحاك ضمنه صور الذات عن ماضيها، وتتدغم فيه أهواء،

وتحيزات، وافتراضات تكتسب طبيعة البديهيات، ونزوعات، وتكوينات عقائدية يصوغها الحاضر بتعقيداته، بقدر ما يصوغها الماضي بمتجلياته وخفاياه"[١٨]» انجزت صالح عالمها المتماسك عبر استدعاء قوة الذات الانثوية التي تعكس صورتها الحقيقية المغايرة للشائع والنمطي ولأن " كاتب السيرة الذاتية يتعامل مع حياته الخاصة على أنها ضرب من الابداع قبل كل شيء يرفض القيود، ويتيح لنفسه من الحرية وخوض مغامرة الكتابة ما تتيحه كل كتابة ابداعية لنفسها . وبهذا الاعتبار تتيح السيرة الذاتية للكاتب الحديث عن الذات وتسمح له بتشخيصها ورواية ما بقي عالقا بذاكرته من حياته "[١٩]

صنعت الكاتبة عالما شديد الثبات عبر قدرتها الخاصة على إبعاد التهويل والعاطفية من خطواتها في العلاج فهي تقول :

"تحريت في الانترنت عن الطبيب ، فعرفت إنه في التاسعة والثلاثين وإنه قد عمل في مستشفيات عديدة في برلين وكتب أطروحته في موضوع السرطان ، وكان هذا كله يعزز الثقة به" [٢٠] .

تشير هذه الفقرة الى قدرة الساردة هنا على متابعة تفاصيل العلاج بما فيها كفاءة الطبيب ، وهذا يعني تماسكها النفسي وتمكنها من التركيز على كل التفاصيل بما فيها ان يكون الدكتور صاحب قدرة وكفاءة ، وهذا أمر يستدعي التركيز والهدوء ويبتعد كثيراً عن الهلع أو فقدان التوازن او النحيب.

"ولعل سرديات النساء تدرك ماذا نعنى بمجتمع منهك من الاستقطاب وازدياد وتيرة العنف وتأثير المعارك على الاقتصاد اليومي فهن محررات من أطر القوة التي سلبها منهن المجتمعات أولا من حصرهن في أدوار اجتماعية وسياسية، وثانيا لا يأبه الأغلب داخل المجتمع بتكتيكات تكيفهن ومقاومتهن وكأنها تحصيل حاصل ومسئولياتهن وحدهن".[٢١]

هناك صورة تبناها الادب العربي لسنوات وطويلة وعبر عنها وقد روجت لنقص النساء ، نقص في القدرة العقلية والوعي وبالتالي المنطق اللازم للقوة وحل المشكلات التي تواجهها في الحياة "باعتبار أن الرجال وحسب رواية شيرلي لشارلوت برونتي "يسيئون تمثيل النساء." نجم عن هذا السياق من التجارب، مفهوم الأدب النسوي الذي يُمثل هموم المرأة ويخترق الخطاب السائد لا بخطاب مضاد بل من خلال تفكيكه وتبيين نواحي نقصه.."

لكن الشكوك تنتابنا ونحن نطالع الروايات التي أنتجتها نسويات عربيات، فهي تتسم بالغضب أو الخفّة المتعمدة، ورغم محاولتهن اختراق اللغة وابتداع حريتهن الخاصة لكن هذا الاختراق تم بأسلحة ذكورية" [٢٢] .

اذن الصورة النمطية عن محدودية قدرة السيدات في مجابهة المرض ، او استغلاله عاطفيا لأغراض معينة او الاستمرار في شكل الانكسار المتوارث ، لم تكن متاحة في هذا النص السيري الذي يوثق فترة صعبة من حياة الكاتبة وهي تواجه مرضا شرسا وقاتلا .

المرض المرعب

واجهت سوزان سانتياغ في كتابها هذه الفكرة الجمعية بالاعتماد على الاستعارات المستعملة، فالاستعارة هي طريقة تفكير واسلوب توقع ،وقد لاحظت تداخلا غريبا بين مرض السرطان وبين الحرب والموت، وركزت في هذا النوع من الكتابة على محاولة الكشف عن طرائق تفكير تريد "فهم تأثير الأوهام الملفقة عن المرض على فهم الآخرين له، وتصوراتهم عنه، عمومًا. لكن سونتاج تركز على السل والسرطان، والإيدز في فصل آخر، لأنهما أكثر الأمراض وصمًا بتسميات مرضية لعينة تثير رعب المرضى وتدفعهم إلى الاعتقاد بأن إصابتهم بهما، خاصةً السرطان، فضيحة تعرّض علاقاتهم الاجتماعية والمهنية للخطر، ولذلك يجب إخفاؤه بوصفه مرضًا قذرًا وذا فأل مشؤوم "(٢٣).

ولعل اول التحديات التي مارسها هذا الكتاب لمفاهيم قارة في لاوعي جمعي إنساني عن مرض السرطان كانت في العنوان ، فقد اسمت سالمة صالح كتابها عام السرطان ، هكذا دون تورية او مجاز ، فيما ثمة فكرة شائعة توصي بعدم ذكر اسم المرض صراحة فيستعاض عنه بكلمة ، المرض الخبيث او القاتل او اوصاف اخرى .

العنوان بوابة وتوجيه للقراءة : " فقد أدرك الباحثون المعاصرون أهمية دراسة العنوان ، وظهرت بحوث ودراسات عديدة تعنى بالعنوان وتحليله من نواحيه التركيبية والدلالية والتداولية"(٢٤) تشير علاقة الاسناد في عنوان الكتاب الى فكرة منسجمة مع رؤيته بشكل عام ، فعام السرطان يعنى انه زمن مؤقت ، وتعني ايضا انها قد تجاوزته الان فيما بقيت تصف الايام التي ارتبطت به باسمه " فالعنوان يقدم معونة كبرى لضبط انسجام النص ، وفهم ما غمض منه ، إذ هو المحور الذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه ، فهو بمثابة الرأس للجسد.

والعنوان ذو صلة وثيقة بافق انتظار القارئ ، على تعدد فهم مستويات هذا الأفق ، إن افق هذا الانتظار يتحدد بالعنوان أولاً ليكون سبباً للدخول إلى النص ، حيث أن أول ما يقف عليه القارئ هو العنوان" (٢٥).

اذا اتفقنا أن السرديات البديلة هي الكتابة التي تتضمن رؤى مختلفة للعالم وتصاريف الحياة والافكار وتهدف إلى اثراء تجربة المتلقي وتحدي توقعاته بطرق مبتكرة ومثيرة فالسرد هنا في كتاب عام السرطان يبتكر مسارات عبر وجهة نظر فردية ومغايرة وهادئة .

ولطالما مثّل المرض في الادب الكثير من المعاني مثل الضعف والعزلة وحتى الهشاشة البشرية ويأتي تعبيراً للصراع الداخلي للشخصية أو لتوضيح صراعات أخرى محيطة اجتماعية أو سياسية ويمكن أن يمثل فقدانا للسيطرة أو تحديا للقدرة على المضي قدما في الحياة .

لا يعنى ما تقدم أن حديث الكاتبة عن المرض كان تصوراً ورديا أو بعيداً عن الواقع أو منكراً للألم ووجوده ، بالعكس تماماً هي تصف تلك المراحل بالكثير من الروية وتمنح التفاصيل حقها في المرور : " في وقت ما ظهرت على صيوان اذني اليسرى عقد صغيرة بينها واحدة مؤلمة ،جعلت النوم على الجهة اليسرى متعذرا، ولما كنت غير قادرة على النوم ساعات طويلة على الجهة اليمنى فقد خطت وسادة صغيرة على شكل علامة استفهام اضعها حول اذني عند النوم فلا تتعرض العقدة المؤلمة للضغط " (٢٦)

إن الكتابة عن الذات هي محاولة لإعادة فهمها والنظر إليها عن بعد تفسيراً وتأملا في سعي الى التحرر من الأطر الثابتة القارة ، وتبدو الكتابة السيرية عن تجربة المرض في هذا الكتاب معايشة وتوثيق للحظات مؤلمة تواجهها الكاتبة بثبات ورباطة جأش وصبر، معبرة عن ذلك بهذه الرؤية أو الفلسفة ، التي يمكن اختصارها بالمقاومة والتسليم ، مقاومة عبر اتباع خطوات العلاج بحذافيرها ، وتسليم بمعنى القبول والإصغاء لتجارب الحياة بكثير من الاحترام مهما كانت مؤلمة .

" أسهل مما ظننت

كنت بعد كل دفعة من العلاج الكيمياوي احصل على حقنة امبوغن لتعيد نسبة الكريات البيض الى مستواها الطبيعي لأنها تكون قد انخفضت عن الحد الطبيعي انخفاضا شديدا، اعطتني الممرضة الحقنة في المرات الاولى ، وحين سألني الطبيب ان كنت استطيع ان اقوم بذلك بنفسي واجبت بالنفي قال ان الممرضة ستعودني في المنزل في نهاية الاسبوع من اجل ذلك " (٢٧)

التفاصيل التي تكتبها تنبىء عن رحلة علاج طويلة وهي ليست بالهينة لكنها تصوغ منها وبقدرتها الادبية تجربة فريدة يمكن ان تكون دليل مقاومة ، هذه المقاومة هي التي تصنع منها سردية بديلة تعارض ما هو متعارف عنه من استعارات المرض التي تربط بينه وبين كل انواع الخوف والشؤم .

تلخيص ونتيجة

قارب هذا البحث فرضية تصورت أن كتاب عام السرطان للكاتبة سالمة صالح امتلك تفردا ما جاء عبر الشكل والفكرة ، الفكرة هي الكتابة عن المرض ، ليس عنه لوحده وإنما عن أيام مرت بالكاتبة أثناء إصابتها به .

الكتابة عن مرض مخيف مثل السرطان اتخذت في هذا الكتاب أسلوبا خاصا لايعتمد على الكليشيات المتكررة ولا الأفكار النمطية ، بل هي تجربة معاشة بتفاصيلها دون الإغراق بالمشاعر والانفعالات الإنسانية عند الخوف والصدمات الكبرى، ولهذا أطلق البحث على سردية المرض هنا اسم سردية بديلة بمعنى المقاومة للفرضيات الكبرى او الشائعة التي تهيمن على عقل الناس ولاسيما في مرض سرش وقاتل ورحلة علاجه طويلة ومؤلمة .

انه وثيقة فردية وخاصة متعالية على ماهو قار ومكرور لأنها تتلمس طريق تجربتها الخاص بنفسها متحدية بالشكل والمضمون أفق توقع المتلقي

هذا الكتاب هو سردية بديلة لفكرة المرض جاءت عبر تخلصه من هيمنة المجازات والثقل العاطفي الذي يرافق المريض والذي ينتقل له عبر تصورات عامة تجعل تحمله ذنبا خفيا في المرض بدلا ان تمنحه التفهم والمساندة .

الهوامش

(١) عام السرطان سيرة روائية لمقارعة المرض العضال (سالمة صالح تكتب عن تجربتها)/ عدنان حسين احمد، الشرق الاوسط ١٢ / مارس /٢٠١٧.

(٢) الجنس الملتبس ، السيرة الذاتية النسائية ، لطفية بصبير ، المركز الثقافي للكتاب ، المغرب ،٢٠١٨ ،ص ٢٨٨.

(٣) عام السرطان

(٤) الذاكرة في الفلسفة والادب ،ميري ورنك ، ترجمة فلاح رحيم ، الكتاب الجديد ، بيروت ،١٦٠.

(٥) عام السرطان

(٦) الذاكرة في الفلسفة، ١٧٣.

(٧) الجنس الملتبس، ٢٩٠.

(٨) ينظر: المصدر نفسه.

(٩) عام السرطان.

(١٠) الذات والذاكرة في خطاب اليوميات / ابراهيم العدراوي ، كنوز المعرفة ،عمان ،٢٠٢٠ ، ص٤٢.

(١١) الذاكرة في الفلسفة والادب ،ميري ورنك، ترجمة فلاح رحيم ،الكتاب الجديد، بيروت ، ١٦٠

(١٢) عام السرطان

(١٣) الجنس الملتبس، ٤٤.

(١٤) عام السرطان

(١٥) الذاكرة في الفلسفة

(١٦) الجنس الملتبس

(١٧) عام السرطان

(١٨) المجلة الجزائرية الثقافية ،السرديات الثقافية والرواية مابعد الكولونيالية ،عبد الباسط طلحة ،من موقع : https://thakafamag.com

(١٩) بلاغة السيرة الذاتية ، اعداد وتنسيق: محمد مشبال،، كنوز المعرفة ،عمان،٢٠١٨، ٢١.

(٢٠) عام السرطان

(٢١) هل لسردية النساء ضوابط ، مزن حسن، صحيفة الشروق ، ٢٠٢٢/٧/٢١

(٢٢) النساء في الادب ضحايا للتمثيل السيء لا خالقات لصورهن ، فدوة العبود ،من موقع شبكة الصحفيات السوريات

https://media.sfjn.org/

(٢٣) ينظر المرض بوصفه استعارة ، سوزان سونتاغ ، ترجمة حسين الشوفي ، دار المدى للطباعة والنشر ، ٢٠٢١.

(٢٤) سيمياء العنوان في النصوص الإبداعية ، فوزي هادي العنداوي ، جريدة الزمان ، ٢٧ أكتوبر / ٢٠١٦

(٢٥) المصدر نفسه.

(٢٦) عام السرطان.

(٢٧) عام السرطان.

المصادر

١. بلاغة السيرة الذاتية ، اعداد وتنسيق محمد مشبال،، كنوز المعرفة ،عمان،٢٠١٨

٢. الجنس الملتبس ، السيرة الذاتية النسائية ، لطفية بصبير ، المركز الثقافي للكتاب ، المغرب ،٢٠١٨

٣. الذاكرة في الفلسفة والادب ،ميري ورنك ، ترجمة فلاح رحيم ، الكتاب الجديد ، بيروت

٤. الذات والذاكرة في خطاب اليوميات / ابراهيم العدراوي ، كنوز المعرفة ،عمان ،٢٠٢٠

٥. سرديات بديلة ، محمد الشحات ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ، مصر ، ٢٠٢١

٦. سيمياء العنوان في النصوص الإبداعية ، فوزي هادي العنداوي ، جريدة الزمان ، ٢٧ اكتوبر /٢٠١٦

٧. عام السرطان ، سالمة صالح ،منشورات الجمل ، بغداد ،٢٠١٧.

٨. عام السرطان سيرة روائية لمقارعة المرض العضال (سالمة صالح تكتب عن تجربتها)/ عدنان حسين احمد الشرق الاوسط ١٢ / مارس /٢٠١٧.

٩. المرض بوسفه استعارة ، سوزان سونتاغ ، ترجمة حسين الشوفي ، دار المدى للطباعة والنشر ،٢٠٢١

١٠. النساء في الادب ضحاتيا للتمثيل السيء لا خالقات لصورهن ، فدوة العبود ،من موقع شبكة الصحفيات السوريات
https://media.sfjn.org/

Sources

1-Rhetoric of Autobiography, prepared and coordinated by Muhammad Mashbal, Treasures of Knowledge, Amman, 2018

2-Ambiguous Gender, Female Autobiography, Latifa Basbir, Cultural Center for Books, Morocco, 2018

3-Memory in Philosophy and Literature, Mary Wornk, translated by Falah Rahim, New Book, Beirut

4-Self and Memory in the Discourse of Diaries / Ibrahim Al-Adrawi, Treasures of Knowledge, Amman, 2020

5-Alternative Narratives, Muhammad Al-Shahat, General Authority for Cultural Palaces, Egypt, 2021

6-Semiotics of the Title in Creative Texts, Fawzi Hadi AlAndawi, Al-Zaman Newspaper, October 27, 2016

7-The Year of Cancer, Salma Saleh, Al-Jamal Publications, Baghdad, 2017.

8-The Year of Cancer, a Novelistic Biography to Confront the Incurable Disease (Salma Saleh Writes About Her Experience) / Adnan Hussein Ahmed, Asharq Al-Awsat, March 12, 2017.

9-Illness as a Metaphor, Susan Sontag, translated by Hussein Al-Shoufi, Al-Mada Printing and Publishing House, 2021

10-Women in Literature: Victims of Bad Representation, Not Creators of Their Own Images, Fadwa Al-Aboud, from the Syrian Female Journalists Network website

https://media.sfjn.org/